

التوثيق عند ابن سعيد (المغرب في حلى المغرب نموذجاً)

Documentation at Ibn Saeed (Maghrib fi hala al maghrib as a model)

إعداد الدكتورة/ بهيجة اشفيرة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس الرباط، المغرب

البريد الإلكتروني: bahijachfira@hotmail.com

ملخص

يهدف هذا البحث إلى توضيح أهمية كتاب المغرب في حلى المغرب الذي يعتبر من المؤلفات الموسوعية التي جمع فيها ابن سعيد المغربي مادة علمية متنوعة تشمل ما هو تاريخي وجغرافي وأدبي ونقدي، سلك فيها منهجا تاريخيا تمثل في تأريخه للأندلس بمنظور شمولي على مختلف الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية، ممهدا للعصر الأدبي بلمحة تاريخية، يستحضر فيها الحالة السياسية وأهم الأحداث التي شهدها العصر، ثم ينتقل إلى الحديث عن الحركة العلمية مع الترجمة للعلماء، مؤرخا للحركة الأدبية من خلال الحديث عن الدول التي تعاقبت على الحكم انطلاقا من التعريف بشخصيات تميزت معظمها بالحنكة والكفاءة السياسية والاهتمام بالأدب ورعاية أصحابه، معتمدا على التأريخ للأحداث والوقائع، والتدقيق في تحديد هذه المجرىات كالاتماد على الحوليات والميل إلى اختصار المادة التاريخية في السرد.

الكلمات المفتاحية: المنهج التاريخي، الحركة العلمية بالأندلس، الترجمة، الحوليات، التأريخ.

Documentation at Ibn Saeed (Maghrib fi hala al maghrib as a model)

Dr/ BAGIHA CHFIRA

Abstract

This research aims to clarify the importance of the book of Morocco in the ornaments of the Maghreb, which is considered one of the encyclopedic literature in which Ibn Said al-Maghribi collected a variety of scientific material that includes what is historical, geographical, literary and critical, in which he took a historical approach that represented in his history of Andalusia with a holistic perspective on various political,

economic, social and cultural trends And urbanism, paving the way for the literary era with a historical overview, in which he evokes the political situation and the most important events of the era, then moves to talk about the scientific movement with translation for scholars, chronicling the literary movement by talking about the countries that succeeded in ruling based on the definition of personalities who were distinguished by most of them with sophistication and political competence And attention to literature and care for its companions, depending on the history of events and facts, and scrutiny in determining these processes, such as relying on the yearbooks and the tendency to shorten the historical material in the narration.

Keywords: the historical method, the scientific movement in Andalusia, translation, yearbooks, history.

مقدمة

يعتبر كتاب "المغرب في حلى المغرب" مصدرا من المصادر الأندلسية ألفه ستة من أدباء الأندلس بالموارثة في مائة وخمسة عشر عاما، يتداولون على هذا الكتاب واحدا بعد آخر، يجمعون وينقحون ويضيفون ما وقع عليه اختيارهم من علم وأدب؛ وهؤلاء الأدباء هم على الترتيب: أبو محمد الحجاري، أحمد بن عبد الملك، موسى بن محمد، عبد الملك بن سعيد، محمد بن عبد الملك، علي بن موسى وهو خاتمهم وجامع شتاتهم.

والكتاب عبارة عن تراجم لأدباء مشاركة ومغاربة برزت في مجالات متعددة: السياسة، الفقه، الأدب، التاريخ، الجغرافيا، الطب، التنجيم، الموسيقى، الفلسفة، القضاء، التصوف... مع الإشارة إلى نماذج من منظومهم ومنثورهم. ويضم الكتاب خمسة عشر جزءا منها ستة لمصر، وثلاثة لبلاد المغرب، وستة للأندلس.

أما قسم الأندلس فقد نشر شوقي ضيف ما وصل إلينا منه في جزأين، وطبع مرتين (1955 و1964 م) وفقد باقي هذا القسم من الكتاب.

وأما أقسام مصر فقد نشر منها في القاهرة 1953 م بتحقيق "زكي محمد حسن" و"شوقي ضيف"، و"سيده الكاشف"، وعنوان هذا الجزء المنشور "الاغتباط في حلى مدينة الفسطاط". ثم نشر "حسين نصار" سفرا آخر من أقسام مصر في القاهرة 1970 وعنوانه "النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة".

أما الأجزاء الخاصة بالمغرب فلم يُطبع منها شيء، و"كتاب المغرب في حلى المغرب" ضاع معظمه ولم تبق منه سوى أجزاء بسيطة (...). نشر المستعرب الإسباني "جارتيا جومث" قطعة من هذا الكتاب بعنوان "رايات المبرزين Las banderas de las campeones"، تناولت الكلام عن بعض شعراء الأندلس من القرن العاشر إلى الثالث عشر الميلادي (...). ومن بقايا هذا التاريخ بعنوان "العيون الدعج في حلى دولة بني طنج" وهي تتناول تاريخ الدولة الإخشيدية في مصر. وقد طبعت هذه القطعة في ليدن⁽¹⁾.

وكتاب المغرب من حيث منهجه يبتدىء بالحديث عن الأندلس وخصائصها وفضائلها، ثم يتحدث عن أقاليمها كورة بعد أخرى، وهو يقسم المترجم لهم في كل مملكة من ممالك الأندلس وأقاليمها إلى طبقات مبتدئا بالعروس، ويقصد بها قاعدة المملكة أو الإقليم، ثم المنصة وهي خاصة بالمعلومات الجغرافية عن القاعدة وما يتصل بها من عمران وحدائق ومنتزهات، ثم يأتي التاج، وهو خاص بمن حكموها، ثم السلك ويتحدث فيه عن أشرفها ورؤسائها من وزراء وكتاب وقضاة، وعن علمائها من فقهاء ونحاة ومحدثين وفلاسفة وشعراء، وتأتي الحلة وهي خاصة بطبقة الليف ممن ليس لهم نظم ولا شعر من الطبقة السابقة، وأخيرا تأتي الأهداب وهي الطبقة السادسة،

(1) في التاريخ العباسي والأندلسي، أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص 541.

ويخصصها للوشاحين والزجالين ويليهم بعض المضحكين وما اشتهر من نوادرهم.(انظر كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، تحقيق شوقي ضيف ص 37 ، الجزء الأول، دار المعارف ، مصر)

ورغم أن الباحثين والدارسين اهتموا بسيرة ابن سعيد العلمية، إلا أن كتابه المغرب في حلى المغرب بقي في حاجة إلى الدراسة، باعتباره نتاجا فكريا حضاريا من أجل توثيق تاريخ موضوعي للأدب الأندلسي والمشرقي قديمة وحديثة، شعره ونثره.

لكل هذا قمت بدراسة التوثيق من خلال المغرب في حلى المغرب، خاصة وأن الكتاب يضم مادة علمية متنوعة أدبية وتاريخية وجغرافية ونقدية.

أهداف البحث:

تتجلى أهداف البحث فيما يلي:

1. التعرف على الأسلوب الفريد والمختلف الذي سلكه ابن سعيد في تقسيم كتابه.
2. مدى إبداعه في طريقة السرد القائمة على التصنيف المرتب، وثناء اللغة، ودقة التعبير.
3. توضيح رؤية ابن سعيد المنهجية القائمة على الإجمال والتوصيف.
4. براعة ابن سعيد الموسوعية في طرح المواضيع المتعددة التي تنوعت بين النقد والتأريخ والشعر أي أنه موهوب متعدد الأبعاد

أهمية البحث:

تأتي أهمية هذا البحث من خلال توضيح الرؤية للقارئ عن منهجية التأليف عند ابن سعيد والتي جعلت لكتابه "المغرب في حلى المغرب" أهمية كبيرة في مصنفات الأدب الأندلسي من خلال عرضه للتاريخ الأندلسي شعرا ومكانا، ومن مصر وكتابها، والمغرب ومبدعيها، كقاطرة عبور حاول من خلالها تقريب الزمن البعيد بأسلوب جمالي سلسل وحبكة تأليف ذات صياغة لا متناهية في التعبير والتدقيق، لكي نخوض في جمالية التصوير والسفر المجاني إلى عوالم الأندلس البهية.

1. الأفق التاريخي عند ابن سعيد

إذا تتبعنا سيرة ابن سعيد موثقا نلاحظ أن هناك عوامل كثيرة، كان لها الأثر الواضح في إنتاجه التاريخي، ويمكن التماس ذلك الأفق من خلال نشأته على النحو التالي:

ورث ابن سعيد ثروة ضخمة من الكتب عن أبيه لذلك اهتم في بداية حياته بالتوثيق؛ فهو يريد أن يواصل العمل الذي بدأه الحجاري وأسرتيه في "المغرب في حلى المغرب" معرفين بتاريخ الأدب الأندلسي، إضافة إلى أنه اهتم بالتوثيق في سن مبكر، حين كان والده يصطحبه معه لجمع أخبار الفضلاء، ثم غدا فيما بعد ملما بهذا الفن.

وكان ابن سعيد يرحل إلى المشرق والمغرب، ويطلع على الخزائن العامة والخاصة، ويجالس أبرز العلماء والشخصيات السياسية والأدبية، ساعدته أخلاقه المثالية على الانسجام مع هؤلاء،

وطبعه الحسن حبه إليهم فأغدقوا عليه بعلمهم، وأفادوه بتراجمهم الشخصية والغيرية، مدونا التاريخ المشرقي إلى جانب الأندلسي، ويتضح من ذلك أن كتابة التاريخ المحلي عنده لم تكن معزولة عن المشرقي، بل كانت بينهما صلة وطيدة، توثقت بفضل رحلاته المتكررة إلى بلاد المشرق.

فقد سلك منهاجا تاريخيا تمثل في تأريخه للأندلس بمنظور شمولي على مختلف الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية، ممهدا للعصر الأدبي بلمحة تاريخية، يستحضر فيها الحالة السياسية وأهم الأحداث التي شهدتها العصر، ثم ينتقل إلى الحديث عن الحركة العلمية مع الترجمة للعلماء، مؤرخا للحركة الأدبية من خلال الحديث عن الدول التي تعاقبت على الحكم انطلاقا من التعريف بشخصيات تميزت معظمها بالحنكة والكفاءة السياسية والاهتمام بالأدب ورعاية أصحابه، معتمدا على التأريخ للأحداث والوقائع، والتدقيق في تحديد هذه التواريخ، مازجا التاريخ بالجغرافيا، وساعد ابن سعيد على ممارسة التوثيق التاريخي والاشتغال به والكتابة عن تاريخ الأندلس؛ أسرته العريقة في العلم والتأريخ ومقامه العلمي كمؤرخ مسلح بثقافة عربية مستوعب لكل ما كان رائجا في محيطه وبيئته، فاستطاع بفضل هذا المركز الوصول إلى ما كان غيره يعجز عنه، هذه المؤهلات العلمية والصفات الذاتية المتميزة والظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تخيم على الأندلس أكسبته حسا تاريخيا عاليا، فامتدت جهوده إلى جمع تراث الأندلس، والدفاع عن كيان الأمة الأندلسية وحضارتها الأصيلة، فكانت النتيجة تلك الذخيرة الثمينة من المؤلفات، فهو لا يهتم بالتاريخ المحلي التخصصي الذي نهجه المؤرخان "عيسى بن أحمد الرازي" و"ابن حيان" اللذان تخصصا في التأريخ لبلاد الأندلس ورجالاتها بل تعداه إلى التاريخ المشرقي خاصة ما يتعلق بالدولة الفاطمية^٥ انظر كتاب النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة.

ويمتاز ابن سعيد بمؤهلات علمية تاريخية، وأدبية من ذكاء مفرط وذاكرة قوية، وموهبة تاريخية صادقة، وفطنة مذهلة، بحيث كان متوسعا في المعارف، ضابطا عدلا ثقة، ذاكرة للتواريخ على تباين أغراضها، متبحرا في علوم اللسان، ناقدا يقظا، كاتباً بليغا، شاعرا مميذا... كلها عوامل ساعدته على التأريخ والتوثيق.

وكانت الرحلة رافدا أساسيا، أضاف إليه علما بالتاريخ والأنساب، فكان شاهد عيان على زمنه القرن السابع؛ وقام بمجهود تأليفي كبير فيما يتعلق بالقرون السابقة خاصة عصر الطوائف من خلال قراءاته المتعددة.

وتأثر بجملة من المؤرخين القدامى الأندلسيين ومنهم عائلة الرازي المتمثلة في محمد بن موسى الرازي (ت. 273 هـ) الذي ألف كتابا بعنوان "كتاب الرايات". ويقول الكاتب الأندلسي محمد بن مزين أنه عثر سنة 471 هـ/ 1078 م في إحدى مكتبات إشبيلية على كتاب صغير من تأليف محمد بن موسى الرازي، اسمه كتاب الرايات. ويبحث هذا الكتاب في موضوع فتح الأندلس ويضم معلومات كثيرة عن القبائل العربية التي رافقت موسى بن نصير إلى إسبانيا. ولكن مع الأسف الشديد فإن هذا الكتاب فقد الآن، ومع هذا،

فنحن ما نزال نمتلك بعضا من فقراته التي اقتبسها ابن مزين، وحفظها لنا الكاتب المغربي محمد بن عبد الوهاب الغساني في روايته عن رحلة إلى إسبانيا سنة 1103 هـ/ 1691 م⁽²⁾.

وأحمد الرازي" الذي غلب عليه حب البحث عن الأخبار التاريخية والتنقيب عنها، واشتغاله بكتابة التاريخ، وساهم في تدوين تاريخ بلده الأندلس، ووضع "قاعدة سار عليها كل مؤرخي الأندلس وهي التقديم للتاريخ بالجغرافية، أي وصف الميدان قبل ذكر الوقائع، فأصبحوا جغرافيين ومؤرخين في آن واحد"⁽³⁾.

ألف أحمد الرازي كتابا في "أخبار ملوك الأندلس" وآخر في "صفة قرطبة" يتحدث عن خطط المدينة ومنازل عظمائها، وكتب موسوعة ضخمة عن أنساب العرب في الأندلس بعنوان "كتاب الاستيعاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس" الذي يحتوي على خمس مجلدات كبيرة، وله أيضا كتاب ضخم عن طرق الأندلس، وموانئها، ومدنها الرئيسية، وتجمعات جندها، وخواص كل بلد منها، وما فيه مما ليس في غيره، وهو الكتاب المسمى بـ "مسالك الأندلس ومراسيها وأمهاات أعيان مدنها وأجنادها الستة".

إضافة إلى تأثيره بعبسى بن أحمد الرازي (ت. 379 هـ) الذي ألف كتابا في "تاريخ الأندلس" للخليفة الحكم المستنصر، كما ألف كتابين آخرين للحاجب المنصور محمد بن أبي عامر أولهما عن "الوزراء والوزارة في الأندلس" والآخر عن "الحجاب في البلاط الأموي في قرطبة، وهو الموسوم حجاب الخلفاء بالأندلس أو الحجاب للخلفاء بالأندلس"⁽⁴⁾.

وقد فقدت معظم مؤلفاته تقريبا لكنها عوضت "وذلك لأن عددا كبيرا من رواياته قد اقتبس ودون من قبل كتاب آخرين، وإن هذه الاقتباسات تقدم أفضل المعلومات عن تاريخ المسلمين المبكر في الأندلس واستقرارهم هناك"⁽⁵⁾.

(2) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، عبد الواحد دنون طه، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، يونيو 2004، ص 21.

(3) نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، عبد الواحد دنون طه، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، يونيو 2004 م، ص 35.

(4) Apéndice a la edición de la Tecmila de aben al- abbar, in Mis ce la nea de est udiosy textos Arabes, Madrid, 1915, pp. 238- 239.

نقلا عن الفتح والاستقرار، عبد الواحد طه دنون، ص 22.
(5) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، عبد الواحد دنون طه، ص 20.

وتأثر ابن سعيد أيضا بابن حيان المؤرخ "الذي تخصص في التاريخ لبلده وحضارتها وسير ملوكها ورجالاتها، بحيث غطي هذا التاريخ من الفتح الإسلامي، وحتى قبيل وفاته"⁽⁶⁾.

إضافة إلى تأثره بأبي عبيد البكري فهو من أشهر علماء الأندلس علما وتحصيلا وقراءة، ولهذا يتفق الكثير من الباحثين سواء منهم العرب أو غير العرب على أنه من أعظم جغرافيين الأندلس بلا منازع"⁽⁷⁾ وأخذ أيضا ابن سعيد عن ابن حزم (ت. 456 هـ) في رسالته "نقط العروس في تواريخ الخلفاء"، وابن خاقان (ت. 535 هـ) في كتابيه "مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس" و"قلائد العقيان في محاسن الأعيان" لذلك بدت عطاءات ابن سعيد متعددة في ميدان التراجم والتاريخ والجغرافيا، والأدب والسياسة والنقد... "وعليه فلا ينبغي ونحن نتكلم عن بلاد عرف أهلها بالإغراب في المحافظة على التقاليد والنواميس السلوكية أن نعجب من ميل مؤرخيه إلى الاشتغال بسير المتقدمين من الأشراف والنبلاء سواء منهم الملوك والحكام الذين تعاقبوا على مسرح السياسة، وكانت بأيديهم أزمة الأمور الدنيوية، أو العلماء والصالحين المعروفين بإخلاصهم إلى الحياة الروحية، فكانوا في نفس الوقت إخباريين، وكتاب تراجم سالكين المسالك التي سبقهم إليها المؤرخون في باقي أقطار العالم الإسلامي"⁽⁸⁾. لذلك تأثر ابن سعيد بالموسوعات التاريخية والجغرافية التي سبقته، والتي كونت العمود الفقري لمادته العلمية، خصوصا كتاب "المتين" لابن حيان الذي ضاع معظمه، ولم يبق منه إلا عدد من النصوص والنقول التي احتفظ بها ثلة من المؤرخين أمثال: ابن بسام الشنتريني في كتابه "الذخيرة"، وابن بشكوال في كتابه "الصلة"، والقاضي عياض في "ترتيب المدارك"، وابن الأبار في "التكملة" و"الحلة السيرة" و"أعتاب الكتاب"، وابن سعيد في "المغرب في حلى المغرب".

2. منهجية ابن سعيد في التوثيق من خلال المغرب في حلى المغرب

أ- اتباع نظام الحواлий:

المراد بنظام الحواлий سرد التاريخ والمجريات بمقتضى تتابع السنين، وقد اعتمد ابن سعيد في توثيقه على المنهج الحولي في ترتيب وتنظيم ما يسوقه من مادة تاريخية في ترجمة ملوكه، وهو منهج علمي يعتمد على التسلسل الزمني للأحداث حيث يذكر ابن سعيد الأحداث سنة بعد أخرى، وفي كل سنة يقوم بالتأريخ لمختلف الحوادث، ويربط بينها بكلمة "وفيها" فإذا انتهت حوادث السنة الواحدة انتقل المؤرخ إلى الحوادث التي تلتها مفتتحا بعد ذلك السنة الجديدة بكلمة "وفيها"، ثم يسترسل في ذكر حوادثها، فهو على وعي تام بالمدارس التاريخية، وأساليب الكتابة التي سادت قبله،

(6) الكتابة التاريخية ومناهجها في الأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف، عبد الواحد عبد السلام شعيب، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 2002-2003 م، ص 95.

(7) Recherches Sur L'histoire Politique Et Littéraire De L'Espagne Pendant Le Moyen Age, Dozy, H, Lede, 1849, P.288.

(8) Les historiens des chorfas, Lévi provençal, éditions Afrique orient, 1991, p. 52.

والتي تأتي في مقدمتها أسلوب الحوليات الذي اتبعه ابن حيان، فسار ابن سعيد على هذه الطريقة "فهذا الترتيب على السنين أو الحوليات، يقصد ألا تعرض الأخبار عشوائيا، ولترتبط بعضها ببعض بجعلها في حيز واحد مهما تعددت روافدها"⁽⁹⁾ فابن سعيد يضع السنوات كعناوين يسرد على ضوءها أهم الأحداث السياسية، وقد احتدى في ذلك بابن حيان في مقتبسه⁽¹⁰⁾.

إلا أن ابن حيان في السنوات يذكر سنة بعد أخرى، بينما ابن سعيد يستطرد فيها ولا يذكرها متتابعة⁽¹¹⁾. إضافة إلى أن ابن حيان يدقق ويفصل في سرد المعلومات، لكن ابن سعيد يذكر أهم الأحداث مع طابع الاختصار الشديد الذي غلب عليه، وعدم إشارته إلى مصادره المستقاة منها معلوماته، لكن ابن حيان يصرح في بداية النقل إلى مصدره من أحمد بن محمد الرازي دون تحديد عنوان الكتاب المعتمد عليه بالضبط. لكنه لم يتوقف عندها بل حاول أن يطعمها بما كان معروفا من أساليب أخرى في التدوين التاريخي، والتي تطورت إلى عهده مثل أسلوب الرواية: أي اختصار الأخبار وروايتها كحادثة واحدة متصلة بغض النظر عن السنين التي وقعت فيها الحادثة التاريخية، كذلك فقد استفاد من الأسلوب الآخر الذي كان شائعا في التدوين، وهو الكتابة عن تاريخ المدن بشكل منفصل.

وتختلط في هذه الحالة المعلومات التاريخية بالمعلومات الجغرافية، وكانت هذه الظاهرة أمرا مألوفا لأن المؤرخين المسلمين لاسيما في المغرب والأندلس كانوا يبدؤون تاريخهم بالحديث عن جغرافية البلد المؤرخ له مثل الرازي الذي "لم يقتصر على العناية بتاريخ الأندلس وحسب، بل تعداه إلى الاهتمام بجغرافيتها كذلك، فوصف مدنها وأقاليمها وممالكها وصفا دقيقا، الأمر الذي جعل من كتاباته الجغرافية مصدرا مهما لعدد من المهتمين بهذا العلم من بعده كالبكري، والعذري، والحجاري، والرشاطي، والإدريسي، وياقوت الحموي، وابن غالب، وابن سعيد والحميري وغيرهم"⁽¹²⁾. وينتهي ابن سعيد عمله بذكر الوفيات على ترتيب السنين مضبوطة باسم اليوم وتاريخه والشهر والسنة.

ويذكر المصادر في البداية التي استمد منها تراجمه التاريخية، فقد اعتمد على مصادر أندلسية ومشرقية ومنها "المقتبس" لابن حيان و"نقط العروس" لابن حزم و"جذوة المقتبس" للحميدي و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير و"تاريخ مصر" للقطبي و"بلشكر الأدباء" للروذباري وهذا الاستشهاد بالمصادر في البداية "هو تطوير واضح في اتجاه الموضوعية التاريخية، لا زلنا نقوم بها إلى الآن فيما يعرف بالتهميش أو الحواشي، وهو الإبداع في التوثيق التاريخي"⁽¹³⁾.

(9) الإبداع عند المؤرخين المسلمين إضافة في منهجية علم التاريخ، عبد المنعم ماجد، مجلة التاريخ العربي، العدد الثالث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة 1997، ص 182.

(10) انظر السفر الثاني من كتاب المقتبس، لابن حيان، تحقيق وتقديم محمود علي مكي، الطبعة الأولى، 2003 م.

(11) انظر المغرب، ج1، ص14-15-16.

(12) الكتابة التاريخية ومناهجها في الأندلس خلال الخلافة والطوائف، ص 96.

(13) الإبداع عند المؤرخين المسلمين إضافة في منهجية علم التاريخ، عبد المنعم ماجد، ص 181.

ونراه يستعين في توثيقه بكل المناهج التي استخدمها المؤرخون قبله، ومن ذلك المنهج الاجتماعي الذي يهتم بدراسة الحياة الاجتماعية للأمرء، ولا يقتصر على الأحداث السياسية العسكرية فحسب.

والمنهج الأدبي الذي يهتم بالتأريخ الثقافي والفكري لعصر الحاكم، والتراجم المفصلة لرجال الدولة وطبقاتهم من حجاب ووزراء وقضاة وكتاب، فضلا عن أن فصولا تعتبر معاجم لتراجم العلماء من كل صنف.

والتوثيق فن من الفنون المرتبطة بالأدب في رأي ابن سعيد، فهو لا يعرض لحدث من الأحداث التاريخية إلا ويمزج تلك الأحداث بالشعر، والرسائل والخطب والحكم والتوقعات... فهو لا يرى فرقا بين توثيق الأحداث التاريخية والأدب، فهذه الأجناس الأدبية ليست دخيلة على المادة، ولا يقصد أن يزينها بها، بل هي داخلية في صميم المادة التوثيقية، وجزء لا يتجزأ منها، وذلك أن الأدب يركز على الأحداث التاريخية ويرتبط بمجاريات العصر التي تقوم بتأطيره وضبط موضوعاته، فابن سعيد كان يمتلك حسا تاريخيا منذ نعومة أظفاره، وكان مولعا بقراءة كتب التاريخ والإقبال عليها، وقد نما هذا الحس وترعرع مع نمو ثقافته، وتوسع مداركه العلمية إلى أن أصبح ناضجا بنضوج فكره واكتمال شخصيته، فاتجه نحو الكتابة والتأليف تحت تأثير عدة عوامل ذاتية وموضوعية كان من بينها الإحساس بالخوف من ضياع تراث الأمة الأندلسية وانطماس معالمها التاريخية والثقافية والحضارية، فانكب على البحث في التاريخ الثقافي الأندلسي، والتنقيب عن جذوره، واتخذ التراجم سبيلا للتعريف بذلك.

ب- الميل إلى اختصار المادة التاريخية:

كان ابن سعيد يبدأ بالمادة التاريخية يستعرض فيها شخصيات سياسية تتمثل في الأمرء بعرض الأحداث المحيطة بتوليهم الحكم عرضا متسلسلا، ثم يعقبه بأحكام عامة عن شخصيته وسيرته وأخلاقه وأسرته ومنشأته وقيمة أعماله وغزواته. محاولا التعريف بأبرز الشخصيات المقربة من هؤلاء الملوك مع ملاحظات دقيقة تكشف عن قدرته على التحليل النفسي للشخصية، وعلى النظرة الشاملة لذلك يقول في ترجمة أبي العاصي الحكم الربضي: "ولى سلطنة الأندلس بعد أبيه. (...). مولده سنة أربع وخمسين ومائة (...). صفته: أسمر طوال نحيف لم يخضب (...). ذكور أولاده عشرون، إناثهم ثلاثون" (14). فهو يجعل مقدمات للعصر الذي يؤرخ له، وهي عبارة عن إيضاح للحياة الاجتماعية والسياسية والدينية والفكرية والثقافية والأدبية التي عاشها كل ملك، وهو يعطي صورة واضحة عن العصر، فإذا انتهى من عملية التأريخ للسلطين أتى ببند عامة يترجم فيها لأعيان أهل الدولة من حجاب ووزراء وكتاب وقادة وقضاة، من خلال وصف حياتهم الخاصة داخل محيطهم الاجتماعي حسب تواليهم في عصورهم ومراتبهم في دولتهم التي تعاقبت، مما يجسد صورة حية لواقع الحكام المؤرخ لهم ومدى اهتمامهم بأهل الفكر والأدب. وهو يفصل هذه التراجم إلى حد يمكن معه أن يستخرج من كتابه التاريخي الكبير أجزاء كاملة خاصة بهذه الموضوعات الفرعية، وتشمل هذه التراجم:

(14) المغرب، ج1، ص 13.

– نبذة عن حياة الشخصية.

– الخصائص الفنية لها.

– بعض المختارات من نتاج تلك الشخصية.

– الإحالة على المراجع التي تحدثت عنها.

وكان ابن سعيد يميل إلى الاختصار، وخاصة في بعض الأحداث التاريخية وأحيانا لا يذكرها، إما لطولها خاصة فيما يتعلق بتاريخ العصر، عندما كان يختار نماذج من تراجمه، وأحيانا يكون بسبب اتساع موضوعاته بما لا يمكن استيفاء مادتها، ويبدو أن سبب الاختصار يعود إلى:

– تنوع الموضوعات التي تناولها من تراجم وجغرافيا وتاريخ ونقد.

– الكم الهائل من المعلومات المتوافرة لديه بسبب اتساع النطاق الزمني (العصر الجاهلي إلى عصر ابن سعيد القرن الهجري السابع) والمكاني (المشرق، الأندلس، المغرب)

إضافة إلى أن ابن سعيد كان موثقا للمادة الأدبية أكثر مما هو مؤرخ للعصر، لأنه لم يترجم للأمرء من حيث كونهم رجال حكم أو شخصيات كان لها أثرها في التاريخ الأندلسي،

وإنما ترجم لهم باعتبارهم أدباء نظموا الشعر وكتبوا النثر، وما أورده عنهم من أحداث كان لخدمة غرضه؛ وهو التقديم لإنتاجهم الأدبي؛ ولا يعني هذا أن كتبه تخلو من الأخبار التاريخية؛ بل ذكر لنا الأحداث التي وردت في عصره، وأرخ لبعض القصائد، وكان شاهد عيان لكثير من الأحداث التي احتفظ بها؛ وسجلها في كتبه، ومن هنا فإنه يمكن اعتبارها مصدرا من مصادر التاريخ لفترة الطوائف والمرابطين والموحدين في المغرب والأندلس؛ وهو مكمل للصورة التي رسمها ابن حيان في مقتبسه.

ج-المزج بين المادة التاريخية والمادة الجغرافية:

جمع ابن سعيد بين هذين العلمين، فهو موثق للمادة التاريخية والجغرافية في آن واحد، كما أن اعتزازه بهويته الأندلسية واعتكافه على التأليف في تاريخ بلده، ووصف جغرافيتها جعل منه موثقا جغرافيا بامتياز "وبالنسبة للتأريخ للمدن، ظهر هذا العمل متأخرا في الغرب عنه في الشرق، مثلما حدث بالنسبة لميادين التأليف الأخرى، ويتناول التأريخ للمدن عادة جانبين: أولهما يتعلق بتأسيس المدينة وتطورها العمراني،

وثانيهما يتعلق بترجمة أعلام المدينة وزوارها من رجال العلم والسياسة والحرب⁽¹⁵⁾، ونلاحظ هذا التداخل المعرفي بين التاريخ والجغرافيا واضحا في العديد من المواقف، ومن ذلك وصفه لمدينة شنتمرية قائلا: "مدينة مشهورة تعرف بشنتمرية الغرب، لأن هناك شنتمرية الشرق وهي الآن للمسلمين ... كان بنو هارون قد ملكوا شنتمرية، وتوارثوها وأخذها منهم المعتضد بن عباد"⁽¹⁶⁾.

فابن سعيد يحدد الموقع الجغرافي للمدينة ممزوجا بتاريخها، وهذا يمثل سمة من سمات منهجيته في الكتابة التاريخية لتمكنه المعرفي ودرايته التامة بالمادة التاريخية والجغرافية في آن واحد، ومدى ازدواجية هذين العلمين عنده، ومن ذلك وصفه لمدينة أشبونة نقلا عن الرازي: "مدينة قديمة في غرب باجة، ولها أثره فاضلة في طيب الثمرات وتمكن في ضروب الصيد برا وبحرا (...) كانت في مدة ملوك الطوائف للمتوكل بن الأفضس، وقد ولى عليها أبا محمد بن هود المهاجر إليه من سرقسطة، وأخذها النصاري في آخر الملتمين"⁽¹⁷⁾.

فهو يشير إلى معلومات تفصيلية تبين فضل كل مدينة وتاريخها السياسي، والجدير بالذكر أن ابن سعيد لم يكن مهتما بالجغرافية من قبيل الصدفة، بل كان اهتمامه نتيجة مؤثرات تتمثل في إدراكه أن الثقافة الجغرافية ضرورية لتكوين ثقافة الأديب، فمعرفة الأرض وسكانها وطرقها واقتصادها من العلوم التي تساعد على إدراك البيئة ومدى تأثيرها وتأثرها، إضافة إلى رحلاته المتكررة التي تطلبت معرفة بالبلدان وخرائطها الطبوغرافية ومسالكها، فهو من أسرة سياسية قريبة من السلاطين وأبنائهم وحواشيهم، وعلى صلة مباشرة بكبار موظفي جهاز الدولة، لذلك نراه يقدم رواياته في كثير من الأحيان بعبارات إسناد مباشر، هذا بالإضافة إلى مشاهداته الخاصة ومعاشته لأحداث عصره سواء في الأندلس أو المشرق حيث كانا حافلين بالأحداث التاريخية الموجهة؛ لذلك انصب اهتمامه من خلال كتبه بنقل أخبار الأندلسيين، وذكر عاداتهم إضافة إلى تدوين أخبار المشرق الإسلامي، وما واجهه من هجمات الصليبيين والتتار والأوضاع المعيشية للمجتمع.

د- الاستطراد في الموضوعات:

يميل ابن سعيد إلى الاستطراد والخروج عن الموضوع الذي يكون بصده في توثيقه، وكان يمر مرورا عابرا على كثير من الأحداث الهامة التي يجب أن تعطى حقها من اهتمام وعناية، وكان الأولى به أن يتوقف مليا عند هذه الأحداث كسقوط المدن الأندلسية رغم أنه عاصر ذلك.

فهو يسرد الأخبار عن الأمراء ثم ينتقل إلى الترجمة ويورد الشعر، أو يستطرد إلى النثر،

(15) انظر مقال محتويات مصادر تاريخ الغرب الإسلامي، "الوسيط"، أحمد عزوي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، العدد 2، السنة 2000، ص 177.
(16) المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص 315.
(17) المغرب ج 1، ص 334.

إلى جانب هذه الاستطرادات يحرص على تسجيل الحكايات المضحكة والحكم والتوقعات والألغاز... أينما وجدها ويقمها مع الأخبار التاريخية، وقد مكنته سعة اطلاعه على الأدب بمختلف عصوره من أن يرصع كتاباته التاريخية بمجموعة من المقطوعات الشعرية والخطب البليغة، والرسائل والأقوال المأثورة... وهو لا يعرضها في إطناب وإسراف وإنما يذكرها في مناسباتها، وينزلها منزلتها اللانقبة، فيضيء جوانب التاريخ، ويجلو غوامض الأحداث، مستعملا المادة الأدبية للاستشهاد في تدعيم الخبر وتأكيد؛ ولعل خاصية الاستطراد تعطينا صورة واضحة عن مدى اعتناء ابن سعيد بكل ما يقرأ وما ينقل، وتدبره لمحتوى النصوص والكتب، وهذا يدل على تعمق قراءاته، وكثرة اطلاعه على نتاج العلماء والأدباء.

فهذا الاستطراد أحيانا يقتضيه السياق، حتى لا يكون الكلام مبتورا أو ناقصا، فهو مكمل ومدعم لمادة من المواد العلمية التي يتطرق لها ابن سعيد، مازجا الفنون الأدبية لكي تزكي الأحداث من جهة ومن جهة أخرى حتى لا يطغى الجانب التاريخي فقط.

هـ- النزعة المحلية الأندلسية:

هذه النزعة ظهرت عند ابن سعيد، فانبرى لتسجيل تاريخ الأندلس والإشادة بفضائلها، ووصف خططها، والعناية بسير ولاتها وقضاتها وأمرائها، واتخذت عنده شكلا جديدا قوامه استمرار العناية بالتاريخ المحلي والتعريف به، مع عدم إغفال أخبار العالم المشرقي خاصة وأنه مهد الحضارة الإسلامية في أوج عطائها.

وبالعودة إلى النزعة المحلية الأندلسية، نجد ابن سعيد يعرض للسلطين من بداية خلافتهم إلى نهايتها مشيرا إلى صفاتهم الخلقية والخلقية وأسره وحواشيهم من وزراء وقضاة وعلماء... وكيفية تعاملهم معهم، ومنجزاتهم التي قاموا بها خلال ولايتهم، ومدى اهتمامهم بالحركة الأدبية من خلال رصد تراجم الأدباء في مختلف المجالات: الفقه، اللغة، الأدب، التصوف، القضاء، الفلسفة، التنجيم، الطب، الفلك، الموسيقى... مما يجعلنا نحسم أن هؤلاء السلطين ساهموا في تنمية الحركة العلمية بمختلف مشاربها.

وابن سعيد لم يستطع التخلص من النزعة الأندلسية على عادة المؤلفين الذين سبقوه كابن بسام... حيث حب الوطن الأم هو المحرك الأساس لكتابة التاريخ المحلي.

خاتمة

إن نشأة ابن سعيد وحياته التي جمعت بين الارتباط بالأسرة السياسية، ودوام الاتصال بالسلطين ورجال الدولة، والإحاطة بعلوم عصره الأدبية والتاريخية، فضلا عما تيسر له من معرفة عميقة بأحوال الأندلس، بالإضافة إلى إفاذته الكبيرة بنخبة من المؤرخين الذين سبقوه، والأدباء في عصره، كل ذلك هيا له القدرة على تفهم روح العصر الذي عاش أحداثه، ومن تم جاءت كتاباته التاريخية صادقة، ومرآة لعصره بما يحمل من تناقضات وصراعات،

وبذلك يمكن أن نعتبره الموثق الثاني بعد "ابن حيان" لعصر الأندلس بفضل ملكته وموهبته التاريخية، حيث صار المؤرخون الذين أتوا بعده يعتدون بأقواله، ويعتمدون عليه في تأريخ الأدب الأندلسي خاصة المقرئ وابن الخطيب.

ومن خلال تتبعنا المادة التاريخية عند ابن سعيد يمكن أن نستخلص النقاط التالية:

- اتخذ ابن سعيد من كتابات عصر الطوائف مصادر لمؤلفاته خصوصا ابن حيان الذي يعد من أكثر المؤرخين الأندلسيين تأثيرا في ابن سعيد، ظهر ذلك من حيث احتذائه بطريقته في الكتابة التاريخية، واكتساب بعض تقنياته ومهاراته والاعتماد على روايته وترجيحها على غيرها والنقل من تأليفه خصوصا "المقتبس" و"المتين".
- تشبث ابن سعيد بهويته الأندلسية في التأريخ وإمامه بأخبار المشرق.
- استخدامه للمنهج العلمي النقدي في الكتابة التاريخية واستعماله لبعض المعطيات الإحصائية أو التأريخ العددي إضافة إلى نزاهته وأمانته العلمية.
- اعتماده على أسرته في تأريخه خاصة والده مما يدل على أن والده ورثه اهتمامه التاريخي.
- حرصه على ذكر مصادره وتوثيق مادته التاريخية؛ مما يعزز مكانته العلمية ومنهجه في البحث التاريخي القائم على التوثيق والضبط.
- وتختلف المصادر التاريخية التي استقى منها ابن سعيد أخباره حسب طبيعة الأحداث والفترات التي وقعت فيها، فهناك مصادر مشرقية وأندلسية، فكان معظم اعتماده على مؤرخين ثقة كان لهم باع طويل في كتابة تاريخ الأندلس أمثال: أحمد بن محمد الرازي، والحجاري، وابن حيان، وابن حزم وكان يشير إليهم مباشرة في بداية النقل.
- سلك ابن سعيد منهجا تاريخيا تمثل في تأريخه للأندلس بمنظور شمولي على مختلف الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية ودقته في تحديد التواريخ وضبطها ومزجه للتاريخ بالجغرافيا، فهو لا يهتم بالتاريخ المحلي وإنما تعدها إلى التأريخ المشرقي.

المصادر والمراجع المعتمدة

أولا: المصادر

- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ج1 و ج2، دار المعارف، مصر.

- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج 1 وج 2، تحقيق خليل المنصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1997 م.

ثانياً: المراجع

- عبد القادر الخلافي، مؤرخو الشرفاء ليفي بروفنسال، مطبوعات دار المغرب، الرباط، 1977 م.
- عبد اللطيف محمد السيد الحريري، السرقات الشعرية بين الأمدي والجرجاني في ضوء النقد الأدبي القديم والحديث، الطبعة الأولى، 1995 م.
- عبد الله المرابط الترغي، أعلام مالقة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1999 م.
- عبد الله بن علي ثقان، المجالس الأدبية في الأندلس، الطبعة الأولى، 1994 م.
- عبد الواحد دنون طه، نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، يونيو 2004 م.
- علي بن عبد الله الدفاع، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الثانية، 1993 م.
- عبد السلام شعيب، الكتابة التاريخية ومناهجها في الأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2002 - 2003.

ثالثاً: المجالات

- كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، العدد 2، السنة 2000.

رابعاً: المراجع باللغات الأجنبية

- Apéndice a la edición codera de la takmla de aben al –abbar, in misceláneas de estudios y textos árabes, Madrid, .1915
- Les historienos des chofars, Lévi – provençal, éditions Afrique orient; 1991.
- Recherches Sur L’histoire Politique Et Littéraire De L’Espagne Pendant Le Moyen Age, Dozy, H, Lede, 184